استغاثة من رجل يلهث ...

قصة بقلم الدكتور نعيم عطية

المكان مقيت .. تمكن مني كراهية كل شيء .. حتى الابتسامات دائمة .. والثياب ناصعة البياض .. ما ان يهبط الليل حتى يتحول كل شيء من حولي الى اشباح .. وتتردد في سكون الليل اصوات تجمد الدم في عروقي . كل ليلة اضع راسي على وسادة القلق واروح في اغفاءة . وفي الصباح اصحو وقد انتابني الهلع من انني سوف ادخل في يومي مدينة بلا احياء ، شوارع هجرها كل الاحياء . او لعلني قد اجد في الخرائب الخراب قد استحال الى ماهو اسوأ من الخراب.

الجميع مقتنعون بأني .. بأني .. لا استطيع .. نظراتهم تعبر عن ذلك .. انا مراقب .. في كل لحظة .. آكل واشرب وانام حسب التعليمات .. كانوا في الليالي الاولى يوقظونني الى سريري .. حتى اكاد اموت عطشا . كنت انادي واصرخ واولول .. لكن الكثيرين غيري في الغرف المجاورة كانوا يصرخون ويولولون .. ايضا ..

بعد فترة امتنعت عن الصراخ .. كافاوني فكفوا وثاقي .. لم اعد اعتبر خطرا ..

قال لي الطبيب ، وهو يدور حولي :

ـ هل تحس الما في راسك ؟

ـ انني بخير ..

مضى يدور حولي وينظر الى اصابعي .. اما انا فكنت اتامل باقة زهر في اناء على منضدة صغيرة بجوار السرير .. حتى الداليا عندكم وراء القضبان ..

ـ انني على احسن مايرام .

قال لي كمن يمتحنني :

ـ الطقس جميل ، اليس كذلك ؟

اغمضت عيني . تذكرت ايام الجمعة .. وددت ان اخلع حذائي.. واعبر الغدير . وفي الحقل عند الظهر .. افتح صرتي .. وابسط اكلتي .. على الارض .. على الارض نمست .. وشبعت .. ثم رقدت، ذراعاي خلف راسي تحت شجرة خضراء .. ارهف السمع الى سنابل القمح الذهبية في الحقل . وابتسمت وضممت الى صدري كتابي. واغمضت عيني ورحت في الاحلام ..

سالت الطبيب الذي يسالني :

ـ الا تعتقد ان بامكاني القيام بنزهة ؟

ـ بعض الهواء النقي ينفعك .

ـ لن يضرني الخروج ؟

ـ .. لكن اياك والحماقات . سنسمح لك بقليل من ـ

وانفجر الطبيب ذو الاسنان الصفراء في الضحك . نظر الي بخبث . ما اروع القفازات ، نلبسها حتى نخفي اصابعنا المخضبة بالدماء .. اخفضت عيني ، وسالت نفسي .. ماذا يعني هذا الصعلوك ؟.. متى اخرج ؟ متى اخرج حقا من هذه الغرفة ؟ قضبان شباكها من العظام النخرة ، وحيطانها من اللحم المقوى . بالله ، متى اخرج ؟.. الا يعرف انني ذات مرة .. استقلت ؟! كان لابد ان استقيل.. فقد تبينت .. انني اضحك .. ذات الضحكة التي يضحكها .. رئيس التحرير !!

. . . . . .

. . . . . .

مضت الايام رتيبة هادئة .. كما لو كنت تجدف في قارب عبر مستنقع لا شاطىء له .. نبكي بلا دموع .. نضحك من قلوب جوفاء ونتكلم دون ان نقول شيئا .... وماذا نقول .. ومن الرواق امام الباب .. نسمع ايقاعات احذية حديدية .. من خلف النوافذ الموصدة؟ خطوات رتيبة .. ذاهبة آتية .. تحت الاعمدة .. في المطر .. في الحر .. وحتى في ضوء القمر .. الى ان التقيت بها عند الحافة .. اطلت .. وابتسمت لي . سالتني :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

قلت لها :

ـ اصطاد .. احاول الامساك بالظلال عند مغرب الشمس .

لوحت لي باصبعها وقالت :

ـ حذار .. ففي الظلال قد تلقى عنقا مخضبا بالدماء .. او قد تصادف مقلة مغرورقة بالدموع ..

رفعت ذراعها ومسحت جدائلها بيدها البيضاء مثل حمامة .. واردفت تقول :

ـ او جدائل شقراء اجتثت من جذورها .

لمعت عيناها الخضراوان ..

ـ .. عنوة .. حذار .. فعالم الظلال حافل بالاشباح ..

قلت لها :

ـ اني اتقبل بكل شجاعة كل الحقائق البسيطة .

كررت تحذيرها ، وقد زادت الفتها لي . قلت لها :

ـ كنت هنا امس .

ضحكت بصوت فضي . وسالتني :

ـ وهل اصطدت ؟

اشرت الى بعيد ، وقلت :

ـ الى جوار الساقية .. جمجمة ... وعند راس السرير ..

شجرة توت جرداء .. والمطر ينهمر .. ينهمر .. كومضات من عيني قطة .. والضفادع تقفز في الطين .. ثقيلة مثل روحي .

مسحت جبيني . وقالت لي هامسة :

ـ تعال . تعال معي .. تعال ... فالروح بالروح تعرف .

ولاول مرة بدا الوقت قصيرا في نظري .. ذلك الذي حـدث لايمكنني وصفه . اني احتفظ به لنفسي .. عالم معكوس .. يحيا الى جانبنا .. ثريات تتدلى الى أعلى ... اشجار داكنة تنمو الى اسفل.. وسيارات تزحف على سقوفها .. نوافذ اشتعلت فيها حرائق برتقالية. وأعمدة من ورق الفضة .. تتلوى الى اعماق أفقية .. ثعابين رخامية ترتعش .. كلما مر القارب القديم .. أو ألقى حجر في اللجة .. عالم مظلم .. نظيف .. لامع .. هامس .. وضيء .. عالم يختفي اذا طلعت فاضحة الاسرار .. كل صباح .. ويظهر بالليالي الرطيبة .. الدافئة .. وهي اجمل .. تلك المدينة الغارقة .. عندما ينهمر المطر ، أو تعصف ريح باغصان الشجر .. يختلط كل شيء .. عالم خرافي .. خيالي .. وواقعي الى اقصى الحدود .. ذلك العالم الذي يرتفـع فيه العمائر حتى الشط الآخر .. وحتى الاشباح فيه ملونة .. بالله ، اين تذهب حبيبتي بالنهار .. وكيف تعود .. في الظلمة ؟!

استوقفني طبيب المصحة ذات صباح . ربت على كتفي . وشـد على يدي مبتسما . ثم قال لي :

ـ اننا معجبون .. بل ومذهولون ...

واردف يقول بعد ان ترك يد ي وطرد ذبابة حومت حول وجهـه الاحمـر :

ـ ان العوارض المؤسفة التي كانت تظهر عليك .. عند قدومك الينا .. قد زالت .. فحصنا كل شيء بدقـة واهتمام كبيرين .. واننـا لنشجعـك .

ـ لكنني .. لم .. بكل تاكيد ...

قاطعني الطبيب . هز رأسه وابتسم ابتسامة الطيبة :

ـ مستحيل .. في حالتك هذه .

ضحكت بشـدة :

ـ انني لم .. ابدا .. اعترف بانني كنت .. ولكنني لم افقد ...

كانت حركات يده تبعث الارتباك الى لساني .. فلم اكن بقادر ان اكمل عبارة من عباراتي .. ثم انتهى بان قاطعني بيقين القديسين:

ـ ان تقاريرنا تثبت ...

ـ لعنة الله على تقاريرك . اقول لك بانني لم افقدها .. انها معي .. أرجو ان تصدقني .. دعني ابرهن لك ..

اخرجت من جيبي محارة .. ورقة شجر .. ريشة عصفور .. خرقة من قماش ملون ..

ـ ارجو ان تصدقني .. الجنيات والارانب تسكن جيوبي .. وكثيرا ماقفزت ضاحكة من جيوبي .

آه ، ما اجمل الذكريات .. اشياء .. في غير موضعها .. مثل .. قارب .. الى جوار سلم .. مثل .. زهرة .. الى جوار بوصلة.. مثل .. اخضر .. الى جوار أزرق .. اشياء .. جائرة .. تبعـث الشجن .. كلها ... في وسط ضبابي .. غير مقنع .

ثبت عليّ الطبيب عينيه الزجاجيتين . ثـم اتسعـت ابتسامته المشفقة . وقال وقد رفع حاجبيه الى اعلى :

ـ من يحلم تحمله الامواج .. ترفعه اجنحة بيضاء .. ولكن تغوص به ايضا الى اعماق مظلمة وحوش عمياء ..

قلـت مصححا :

ـ من يحلم تحمله الامواج .. الى رمال دافئة .. على شطئان بعيـدة ...

رد بصوت صارم :

ـ وتصدمه بصخور خشنة .. قاسية .. شريرة .. مثل مردة في ضوء القمر .

تنهدت . اشحت بوجهي .. ظلام تحت السطح .. كثيف .. كثيف .. بقايا .. بقايا .. نفايات من مئات السنين .. في القاع.. يالغرابة .. الليل والنهار سواء .. ما ان تغوص حتى يطبـق الظلام .. أرض من طين .. حافل بكل مايتصوره ولا يتصوره عقل.. من العوائق .. اسلاك .. كابلات احيانا .. اخشاب .. حجارة .. وزجاج.. في دنيا فريدة من نوعها .

قال الطبيب بصوت ثابت :

ـ مستحيل .. ليس ثمة مريض يعرف احسن من الطبيب .

يقولون انني لا اعرف شيئا .. لكنني اعرف الكثير .. اقسم.. اعرف الكثير .. عن النهار والليل .. والنجوم والنسمات .. عـن السماء والبحر والريح والقمر .. عن السمك الملـون والقطط والملائكة والشجر .. كل ما هنالك انني لا اتحدث عنها حديثا مباشرا .. ولذلك فانا لا اهتم بان ادخل الامتحانات وارشح للوظائف .. فـي المكاتب والمؤسسات والمقابـر العامـة .. ولا اكترث بالاعلانـات في الجـرائـد ...

هز الطبيب رأسه الاصلع :

ـ مستحيل .. كل هـذا لا يغير من الامر شيئا . انصت الـيّ واذعن لمـا أقول .

استطردت مدافعا عن نفسي :

ـ بامكاني ان ادخل عقل قط نهاب لحظة تاهبه للانقضاض على عصفور .. وان اطير بجناحي بعوضة لازور مدائن بين النجـوم .. وان امشي في جنازة زهرة ..

مد الطبيب ذراعيه اليّ ، وامسك كتفي واجلسني على السرير :

ـ البلاغة لا تفيد . نحن نعرف مصلحتك .. احسن منك .

ثم قال بلهجة تهديدية :

ـ تسير على حافة هاوية .. زلة واحدة .. قد تفضي بك الى القاع .. الى الحضيض .. الى الهاوية ..

خيمت برهـة صمت .

يسخرون مني ، هيه ؟ لا القى منهم احتراما ؟ ليتهم يعرفون ان روحي روح طفل يجوس هذا العالم بقلب متفتح لكل ماحوله بعينين تريدان ان ترشفا الوجود بكل الوانه وزهره وفراشانه ولعبه وحيوانه وطيره .. وخزعبلاته .

ازاح الطبيب الغطاء عن سريري ، وامرني ان ارقد . اصلـح وضع الوسائد تحت رأسي . هممت ان انهض . جذب الغطاء حتى رقبتي . ومال عليّ قائلا :

ـ اتبع التعليمـات. هذا اجـدى عليـك .. تشبث بالحبـل جيدا .. ولا تنظر الى اسفل .. فربما اصابك الدوار .. وحـل بك الخوار .. وسقطت في طريقك .. الى القمة العالية .

عند الباب قال لي :

ـ لا داعي للنوم الليلة .. يجب ان تتعود الاستغناء عنه . واطفا النـور .

ياالهي ، ان تسمع الكلام الذي يملاك مـرارة وتصفـق .. وتصفق .. واذا توقفت امروك ان تصفق .. لا .. لا .. استطيع.. علي انا ان اضحك .. هيه ؟ وعليك انت النكات ؟.. ادع لك كـل شيء .. كل شيء لك .. تخطب انت .. وعلي انا التصفيق .. لا .. لا .. لماذا ؟ لماذا نزحف على بطون خاوية .. بينما خلقنا ، كالنسور ، للقمم العالية ؟! لا .. لا .. لا .. ربما نموت لاننا لانعرف كيف نعيش .. أريد ان اغمض عيني .. وافتحهما فلا اجد نفسي على الاطلاق .. او اغلقهما فلا افتحهما .. ابدا .. انا لا افهم الحياة .. وهي لاتفهمني .. انا اخشى الحياة ، وهي تسخر مني .. انا احـب الحياة ، وهي معشوقة خؤون .. الحمدللـه ـ على اي حـال ـ لا زال ضوء القمر .. وموج البحر .. والحصى .. والزجاج المكسور .. مباحـا لنـا .

في تلك الليلة حلمت بها .. نظرت المجنونة ذات المنديل الاحمر الى الحشد الواقف عند محطة الاوتوبيس ، وقالت :

ـ ياخواتي الناس اتجننت ؟! والا الدنيا جرى لها ايه ؟!

ربتت على ظهر قطتها جاحظة العينين وقالت :

ـ يشنقوني ؟ وادفع ثمن الحبل ؟!

انخرطت في نوبة من الضحك الصاخب .. جاء الاوتوبيس من بعيد .. هجم الحشد عليه .. وانطلق في طريقه .. بقيت المجنونة وقد خيمت في عينيها سحابة حزينة .

تمتمت تحدث نفسها : « الليلة اللي بيجي فيها انا معلماها .. ديك الليلة كنت باموت فيها .. الكلب نبح عند الباب ، والاوضة كلتها لسه امبارح كنت كنساها .. والحصيرة كنت على الارض فرشاها .. والكنبة باللحاف .. باللحاف الاخضر كنت كسياها .. » هزت راسها بمرارة وقالت « لكن .. والفايدة ايه ؟.. البنت تطلع جنب امها .. والام تموت جنب بنتها .. بعدما تطرح مرة .. او مرتين ... زينا تمام .. »

كوة في الحائط فتحت .. لي .. رايت منها السماء والنجوم والسحب .. وبحرا داكن الزرقة .. وافقا بعيدا .. انكببت على الماضي .. واغترفت الكثير من ذكرياتي التي لم تنح من مخيلتي .. بكل تفاصيلها وابعادها .. ذكريات مضت عليها اكثر من عشر سنوات تمثلت امامي بكل واقعيتها . تماما كما لو كنت اراها توا .. واعيشها من جديد .. اكانت هذه لحظات من حياتي ؟ اكانت نجوما وسحبا وبحرا .. هل حقا رايت مثل هذه في حياتي ؟ اني اذكرها .. آه ، اجل ، اذكرها .. جيدا .. ذات مساء .. اوربما كان الوقت قبيل فجر .. في الشتاء .. وهل اذن سيشرق يوم ؟ هل ستصعد من هذا البحر الداكن الرطب شمس برتقالية صفراء .. تلهب الصحاري .. وتنضج القمح والثمر .. من ذلك القمح صنع رغيفي .. ومن هذا الثمر يملأطبقي .. مرة كل حين .. ويزج بالرغيف والثمر الى غرفتي هذه .. دون ان اعرف من اين .. آه ، هل فتحت لي في الحائط كوة . حقا ، هل فتحت ؟ انني لا اذكر .. لا اذكر .. بل اذكر .. اذكر انني بينما افرح بالوجود الرحيب واملأ به عيني واذني وصدري .. اغلقت الكوة .. كيف ؟ لا ادري .. في سكون .. في خبث .. كلص يتسلل في الظلام .. يخطف ويجري .. كما لو كانوا قد نسوني .. اكان الامر انتقاما ؟ ام سهوا ؟ لا اظن ..لا ادري .. سدت الكوة .. واطبقت الحوائط على .. وها انا اسائل نفسي ؟ هل انفتحت في هذا الحائط الاصم كوة ؟ هل انفتحت ، حقا ؟ ام هو امل ؟ هو حلم ؟ ام هو وهم .. من اوهام غرفتي المظلمة ؟ اوربما افرطت في الاصغاء الى اصداء نفسي ، فانعكس على حائط سجني بارقة .. ومضت بخاطري .. فلمعت امامي لحظة خاطفة .. من داخلي ؟! ولا شيء .. لاشيء غير ذلك ؟!

سمعت في الرواق طبيبين يتحدثان :

ـ مسكين .. كنا على وشك ان نوصله الى حافة الهاوية .. التي اردته فيها حماقاته .. واذا بالحجر الذي تعلقنا به سقط من يده فهوى الى القاع من جديد .

ـ انه بارع في خلق الاوهام ..

ـ هذا يجعله يرى اشياء لا وجود لها على الاطلاق ..

ـ ويسمع كلمات لم ينطق بها احد ..

ـ والغريب انه متعلق بها .. يحبها ..

يتحدثان عني ؟! عن اية حافة يتكلمان ؟! كنت طوال الوقت اطير مع السحاب .

قلت لنفسي في مرارة :

ـ ساقاوم .. سامتنع .

مضى الطبيبان في حديثهما :

ـ ستودي بـه .

ـ لكنه يحبها .. يحبها ..

ـ اذن يجب ان يموت .. حتى يصير اكذوبة .

الحب كالمستنقع .. بؤرة عاطفية تفوص فيها .. الحب لايسبب الا الالم .. ولا اريد مزيدا من الآلام . اخرجت من جيبي .. كل حياتي .. عنقود العب .. الشمعة .. ريشة من جناح طائر .. المنديل الاحمر .. صورة المراة الراقدة على السرير .. عارية .. وصورتها على الاريكة وعند النافذة .. قدح الشراب المحطم .. ورقة الشجر التي التقطتها ذات مساء من ممشى حديقة .. العقود والاقراط الزائفة .. وضعتها .. كلها .. على السجادة الخضراء الصامتة.. كلها .. كلها .. كل حياتي .. عند الشط البارد ..

يا الهي ، الازرق لون صعب المراس .. وفي الهوة التي ترديت فيها كنت اناديها .. انا اموت ، والكل من حولي في النوم يغطون. هل من احد يستطيع ان يفعل لي شيئا ؟ هل يقدر احد ان يبذل لي عونا ؟ هل يستطيع ان يشفيني ، او حتى يعطيني جرعة تسكن المي او تخففه عني ؟.. انا اموت .. والليلة مدلهمة الظلمات .. ليس بها قمر او نجوم تودعني عندما يسجى جسدي هنيهة قبل ان يلقى بي الى .. الى الحفرة المظلمة السحيقة .. كنت سأموت .. واصبحت متاكدا من ذلك الان ، كمن يرى عوارض الطاعون على يديه ..اصبحت اعرف ان ايامي معدودة .. وان معرفة الشخص بقرب اجله تجعله يحس كانه قد مات حقا .

نعيم عطيه

الماركسية والمسألة القومية

(الجزء الاول)

بقلم

جورج طرابيشي

اول دراسة موسعة ضافية في اللغة العربية عن موقف الماركسية من المسالة القومية بمختلف صورها، وفيها فصل طويل عن موقف الماركسية من القضية اليهودية .

صدر حديثا عن دار الآداب ، بيروت ..٥ ق. ل.